فرانسوا باسيلي *

المساحة الزمنية بين الاسلام والمسيحية:

لماذا تقدم الغرب وتخلف العرب؟

■ لماذا تخلف العرب عن ركب الحضارة المعاصرة المتوثبة؟

كان هذا هو السؤال الاهم الذي شغل المفكرين العرب منذ اصطدام طلائعهم الاولى بالحضاره الغربية المتفوقة. وحدثت هذه الصدمة اولا مع دخول نابليون الى مصر بعتاده وعلمائه ومدافعه فصدم المصريون الذين كانوا يدافعون بالسيوف والخيول صدمة حضارية هائلة اكتشفوا معها مدى تخلفهم عما وصلت اليه الحضارة الغربية، ثم تأكدت الصدمة بعد ذلك عندما بدأت طلائع الدارسين والمفكرين المصريين والعرب تزور اوروبا وخاصة لندن وباريس لتكتشف اسلوبا مختلفا تماما في الحياة وفي التفكير وفي التدبير، ووجدوا حضارة باهرة تتجلى في مدن عامرة زاهرة تتميز بالتخطيط العمراني الرشيد وبالجمال والذوق والنظام والنظافة.. مما لم تعرفه اكبر المدن العربية وقتها وهي القاهرة. كما اكتشفوا في الانسان الاوروبي نمطا انسانيا مغايرا لما عرفوة فيمن حولهم.. فهو انسان جاد يعمل بحزم ونشاط وامانة واتقان. كما انه انسان هاد، متعقل لا ينفعل وينفجر لاتفه الاسباب ولا يتقلب في طباعة من النقيض للنقيض ولا يبالغ حتى ان الصفة التي اطلقها المصريون على الانكليز هي صفة: البرود حين وجدوهم يواجهون الامور بشكل عام بهدوء وعقلانية وليس بانفعال وعاطفية مثل الانسان في الشرق ولم تخف على هذه الطلائع العربية التي ذهبت الى باريس ولندن للزيارة او للدراسة ان لهذه الحضارة الغربية المختلفة التي صدموا بها جوانبها المتكاملة في منظومه حضارية شاملة تتضمن مختلف الفنون والعلوم من عمارة وهندسة وصناعة وطب إلى علوم عسكرية وادارية وانسانية الى الفنون بانواعها من موسيقى ورقص ورسم ونحت الى مسرح وادب وشعر وقصة. يصاحب هذا كله سرعة لاهثة نحو التغيير واكتشاف الجديد والتقدم والابتكار والاختراع، فكل ما حولهم من مظاهر حضارية واليات تقنية ومدارس فكرية وفنية ونظريات علمية هي منتجات الحاضر وليس الماضي التليد.. عمرها كله لا يتجاوز القرن الواحد منذ بزوغ الثورة الصناعية وسيطرة افكار عصر النهضة ومبادئ التنوير التي حررت العقلية الاوروبية من الاغلال الفكرية التي كانت تكبله بها هواجس التزمت الديني والرؤية الدينية المتشددة المنغلقة للحياة.. فاذا بالعقل الاوروبي المتحرر ينطلق كطفل فرح، مندهش ليكتشف اسرار الكون سرا بعد سر وليبدع في كل مجال وكل مكان وقد خفت في وجدانه صوت المتاجرين بالدين المتوعدين بجهنم وبئس المصير.

كان طبيعيا ان يتساءل هؤلاء الزوار العرب الاولون عن اسباب تفوق الاوروبيين وتخلف العرب. وكان طبيعيا ان يبدأ البحث عن الاجابة في اكثر جوانب الاختلاف وضوحا. وكان من السهل ملاحظة ان الأوروبيين يختلفون عن المصريين والعرب في الدين واللغة والشكل الجسدي.

كانت اللغة هي اسهل هذه العوامل في تفنيدها واستبعادها اذ ان اوروبا نفسها لا تتكلم لغة واحدة اذ هناك الانكليزية في لندن والفرنسية في باريس والالمانية في برلين وهذه كلها مراكز حضارية بارزة اذن ليست اللغة هي مفتاح الحضارة الاوروبية وبالتالي ليست اللغة العربية هي سبب التخلف العربي.

اختلاف الدين كان عاملا اكثر صعوبة على التفنيد والاستبعاد اذ ان اوروبا برمتها كانت تدين بالمسيحية سواء في مذهبها الكاثوليكي في فرنسا او البروتستانتي في انكلترا والمانيا بينما كان المصريون والعرب بشكل عام يدينون بالاسلام. ولكن اختلاف الدين لم يصمد طويلا كسبب اساسي لتخلف العرب لان العرب قرأوا لباحثين ومؤرخين اوروبيين يعترفون بالتفوق السابق للحضارة الاسلامية حينما كانت اوروبا تعاني الانحدار والتخلف بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ورقاد اوروبا كلها في ظلمات العصور الوسطى بينما كان الشرق العربي من بغداد الى الاندلس يتوهج بالعلوم والفنون والمدنية الزاهرة. ورأينا عالما مسلما مثل ابن خلدون يؤسس علم الاجتماع ومفكرا مثل ابن رشد يضع العقل فوق النقل وفوق النص ورأينا الاندلس العربي يحتضن الاقليات اليهودية والمسيحية في تفتح وتسامح لم تعرفه اوروبا بعد ذلك بسنوات طويلة حين راحت تنصب محاكم التفتيش لكل من يختلف عن الفكرالسائد المتزمت.

اما اختلاف الجنس اوالعرق الذي يظهر واضحا في الشكل الاوروبي ذي العيون الزرقاء والخضراء والبشرة البيضاء والشعر الاشقر والذي قد تؤيده بعض الدراسات الانثرويولوجية فهو الآخر لم يصمد طويلا كسبب للتخلف العربي اذ يمكن حتى للانسان العربي الجاهل سواء في صعيد مصر او في العراق او لبنان ان ينظر حوله ليرى آثار حضارات قديمة صنعها اجداده في فجر التاريخ. هذا اذن انسان عرف كيف يصنع الحضارة ذات زمن سحيق بينما كان قرينه في اوروبا يعيش في عصور ما قبل التاريخ او ما قبل الحضارة. فاذا صنع المصري تلك الحضارة المصرية الشاهقة في فجر الانسانية فلماذا يتخلف عن الحضارة الانسانية اليوم؟

اختلاف الجنس والدين واللغة اذن لا تشكل منفردة او مجتمعة سببا مقنعا لتخلف العرب عن ركب الحضارة العالمية المعاصرة. ما سبب هذا التخلف اذن؟

ومما يزيد في حيرة الكثيرين من المثقفين العرب المهمومين بهذا التساؤل الوجودي المصيري الهام هو انهم ينظرون حولهم الى بقية شعوب الارض فيجدون ان معظم هذه الشعوب بما فيها تلك التي تشترك معهم في الكثير من الظروف التاريخية وتلك التي كانت زميلة لهم في وضعهم كدول نامية منذ حوالي ثلث قرن فقط قد قطعت شوطا طويلا على طريق التقدم الحضاري واصبحت تتفوق عليهم بشكل ملحوظ.. ومن هذه الدول الهند والصين واليابان وبعض دول امريكا اللاتينية ودول اوروبية لا تكاد تملك اية ثروات طبيعية مثل سويسرا وايرلندا.

واصبح من الموجع حقا للمثقف العربي المخلص لأمته ان يلاحظ بشيء من التعميم ان العالم كله يتقدم ما عدا العرب. بل ان الادهى من ذلك ان بلدا رائدا للمنطقة العربية كلها مثل مصر ليس فقط يتخلف عن الركب الحضاري العالمي بل يتخلف مقارنة بماضية الحديث نفسه اذ يمكن القول بلا مبالغة ان مصر في القرن العشرين وحتى نهاية الستينيات منه هي افضل من مصر اليوم حضاريا وثقافيا وعلى جميع الاصعدة.

اما الذي يبعث على الضحك المؤلم الذي هو نوع من البكاء فهو ان هنالك جماعه في مصر والعالم العربي اليوم لا تشارك اغلبية المثقفين العرب والعالم اجمع الاعتراف بتخلف العرب الحالي، بل تقول ان المجتمعات العربية تعيش حالة من الصحوة يسمونها «الصحوة الاسلامية». وهذه الجماعه هي جماعة ما يطلق عليه اسم «الاسلام السياسي» ومنهم اعضاء في «الاخوان المسلمون» وحركات اخرى اكثر تشددا فهؤلاء جميعا ينظرون الى مصر – الرائدة التاريخية للنهضة العربية فيجدون انهم قد نجحوا في تحجيب نسائها المسلمات عن بكرة ابيهم بما في ذلك زوجات العديد من المثقفين المصريين الذين لا يعتقدون ان الحجاب فرض، حتى هؤلاء لم تستطع نساؤهم مقاومة الضغوط الرهيبة التي نجح الاسلاميون في فرضها على الوجدان الشعبي دون مقاومة فكرية ثقافية من احد. ينظر الاسلاميون الى هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف الحجاب حتى مطلع السبعينيات من القرن العشرين فيرونه قد صار مجتمعا محجبا وبعضه منقبا ويرون مظاهر التدين الخارجية في كل مكان فيعتبرون ان هذه صحوة اسلامية، فالمتشدد في الدين سواء كان مسلما او مسيحيا او يهوديا ينظر الى العالم حوله بنظرة دينية احادية طاردة لكل منظور اخر وبالتالي لا يستطيع فسيولوجيا ان يرى من العالم حوله سوى مظاهر التدين وحدها، ويعمى عن رؤية اى مظاهر اخرى لانها ليست في مدى اهتمامة البصرى الخاضع لاهتمامه الوجداني الفكري المنحصر في الدين وشعائره ومظاهره. وبهذا لا يستطيع المتشدد دينيا ان يرى ما حوله من المظاهر الواضحة للفساد الشديد والتخلف العلمي والحضاري المصاحب لمظاهر الصحوة الدينية.. لان فرحه الجنوني بمظاهر التدين الخارجية تمنحه نشوة وجودية كالتي يبعثها حفل الزار في مريديه من الراقصين.. فيكاد من فرط نشوته التي اغرقتها عاطفته الدينية الفياضة ان يذهل عن الوجود والواقع الذي حوله ويدخل في حالة من الشبق الديني المخدر اللذيذ فيروح يهلل ويسبح بحمد الله الذي أغدق عليه كل هذه النعم الواضحة من مظاهر الهداية والتقوى والورع حتى ولو كانت محاطة بكل مظاهر التردي الحضاري في المجالات العلمية والاقتصادية والثقافية والفنية التي تصاحب بالضرورة حالات التشدد الديني في كل مجتمع يصاب بهذه الحالات مهما اختلف اسم الدين السائد في ذلك المجتمع. وقد حدث هذا في اوروبا من قبل حين كان الباباوات في روما ومن تحتهم من كاردينالات وقساوسة لهم سطوة هائلة على البشر راحوا بموجبها يبيعون لهم فيها مفاتيح السماء على هيئة صكوك غفران تغفر لهم خطاياهم وتعدهم بالخلاص وحياة النعيم بعد الموت. ولا شك ان المتشددين في تدينهم المسيحي في ذلك الوقت كانوا يرون في هذا صحوة دينية عظيمة حتى ثار على هذا كله في النهاية رجل دين مستنير من داخل الكنيسة هو مارتن لوثر الذي دفعه سخطه على هذا التسلط الخانق لرجال الكنيسة الى الغاء نظام الكهنوت من اساسة والغاء كافة منظومة الشعائر والمظاهر الخارجية التي كانت تدخل الناس في دوامة لا تنتهي من الصلوات والشعائر والعبادات والممارسات التي لا تفيد المجتمع ككل اية فائدة.. اذ هذه كلها جهود ضائعة في هباء بلا منتوج ولا مردود يضيف فعالية للحياة او يبعد عنها الامراض او يسخر لها الطبيعة او يطيل من عمر الانسان او يبني له العمران كما يفعل ذلك كله العلم والعمل الجاد الذي انخرط فية الانسان الاوروبي بعد ذلك منذ عصر النهضة والتنوير والى اليوم.

هذا الفكر المدهش الذي يرى في التردي الحضاري الشامل للمجتمعات العربية «صحوة اسلامية» هو احد المفاتيح الاساسية للبوابة التي يمكننا من خلالها الدخول الى المخدع المحرم او قدس الاقداس الذي ينام فيه نومة اهل الكهف سر اسرار التخلف الحضاري للانسان العربي المعاصر. هذه النظرة الدينية الاحادية بالغة الضيق لا بد ان تكون هي دليلنا الاول الذي نسترشد به في متاهتنا هذه نحو فهم واكتشاف اسباب التخلف العربي الحالي بشكل لا تعاني منه امة اخرى على وجه الارض ربما باستثناء بعض القبائل الافريقية في بعض الادغال النائية من القارة الهائلة.

وهنا نصل الى نقطة اختلاف اخرى بين العرب والغرب لم نلاحظها من قبل حين رحنا نلاحظ اختلاف الجنس والعرق واللغة والدين. وهذه النقطة هي الاختلاف الزمني بين عمر الديانة المسيحية على الارض وعمر الدين الاسلامي. فقد ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية بعد حوالي ستمائة عام من ظهور المسيحية في فلسطين. هذه الستة قرون هي فترة زمنية لا يستهان بها في تاريخ الشعوب وتطور الحضارات فنحن نعرف ان النهضة الاوروبية الحديثة عمرها حوالي ثلاثة قرون والولايات المتحدة نفسها كدوله عمرها مائتان وثلاثون عاما فقط ويمكن القول ان الشعوب المسيحية قد استغرقت حوالي ستة عشر قرنا حتى تصل في النهاية الى معادله معقولة بين الاحتياج الانساني للايمان الديني وبين احتياجه المماثل للحرية الفكرية والوجدانية التي توفرها درجة من البعد المناسب عن الرؤى الدينية المتشددة المتزمتة. لقد مرت المجتمعات المسيحية بقرون طويلة من الصراع الدامي بين الفئات التي تصعد في كل جماعة للتسلط على الاخرين رافعة رايات دينية عالية التوهج وبين فئات المفكرين والفنانين المنحازة الى الحرية الانسانية والى العقل وابداعاتة في العلم والفن والفكر. راحت الفئتان تتصارعان على مدى اجيال عديدة للاستحواذ على عقل ووجدان الغالبية من البشر.. فئة المتسلطين باسم الدين تستخدم الترهيب والترغيب معا. ترهيب البشر بتلك الصورة بالغة الرهبة والبطش.. صورة جهنم الى ابد الابدين التي يصعب على الانسان المسكين حتى تصور مداه. وترغيبهم بصورة الجنة والنعيم الى ابد الابدين. وحين يمكنك ان تمزج الصورتين معا فتقدم للانسان البسيط اعظم صور العقاب والعذاب اذا عارضك ولو بفكرة او همسة.. وفي نفس الوقت تقدم له اعظم صور الثواب والنعيم اذا هو خضع لك واستسلم استسلاما فكريا وحياتيا كاملا تكون قد نجحت في استلاب والاستيلاء على الغالبية العظمى من البشر المساكين. ولا يفلت من يديك سوى اعتى الرجال الذين يملكون عقولا هائلة ووجدانا بالغ الجسارة لا تروعه هذه الصور عظيمة الترهيب والترغيب. بينما لم تكن فئة المفكرين والفلاسفة تملك سوى قوة المنطق وحده محاولة ان تقنع به بشرا يغط معظمهم في ظلام الجهل المطبق. هذا هو تاريخ الصراع المرير الذي دام ستة عشر قرنا كانت فيها السطوة للمدعين النطق باسم الله المالكين مفاتيح السماء. ومع اختراع المطبعة وانتشار الكتب ومعها الثقافة والعلم والفكر راحت تتراجع سطوة المتسلطين باسم الدين وتتقدم طلائع التنوير على الارض الاوروبية بمختلف لغاتها وجنسياتها. وكان عصر النهضة وعلى رأسه المفكر الفذ فولتير هو بمثابة الانتصار النهائي للعقل الحديث اذ توصلت على اثرة المجتمعات الاوروبية الى المعادلة الذهبية التي تحفظ للانسان حاجته للايمان المتزن الوسطي المسترشد بالعقل. واصبح رجل الدين المسيحي انسان خدمة روحية حقيقية وليس انسان تسلط وادانة وطغيان ومحاكمة كما كان في عصر الظلمات.

هذا الفارق الكبير في العمر الزمني بين ظهور المسيحية وظهور الاسلام يعني ان المجتمعات الاسلامية لم تصل بعد الى مرحلة حسم الصراع بين المتسلطين باسم الدين وبين فرسان التحرر الديني والفكرى والفني، ففي خلال خمسة قرون من حكم الخلافة العثمانية كان الصوت والسوط الديني هو السائد ولذلك لم تكن هنالك حضارة او علوم او فنون او حياة انسانية كريمة متفتحة بأي معنى من معاني الكلمة. وما ان سقطت الخلافة العثمانية حتى بدأت حركة النهضه في مصر على يد محمد عبده والطهطاوي وقاسم امين وغيرهم واستمرت هذه النهضة مع ثورتي سعد زغلول ثم جمال عبد الناصر حتى بلغت اوجها في الستينات من القرن العشرين ليعود الصوت والسوط الديني للصعود مرة اخرى للسيطرة على الشارع في مصر والعالم العربي منذ بداية السبعينات والى اليوم.

التوصل الى المعادلة الذهبية بين الدين والحرية وسحب البساط من تحت المتسلطين باسم الدين على عقول ووجدان العباد مرة واحدة ونهائية لتحرير الانسان العربي هي مرحلة لم تصل اليها المجتمعات العربية بعد. وقد تحتاج الى قرن او قرنين من الصراع المرير بين قوى التسلط وقوى التحرر. اذ قد يحتاج الامر نفس الفترة الزمنية التي احتاجتها المجتمعات المسيحية للتوصل الى تحرير انسانها من التسلط الديني.. وربما يكون لنا في تسارع التقدم الحضاري المطرد امل في ان تختصر المجتمعات العربية هذه الفترة الى اقل من مثيلتها الاوروبية.

* كاتب من مصر يقيم في نيويورك
fbasili@gmail.com

كل واحد منهم تؤهله اعماله لمحكمة جرائم حرب:

الثمن الذي سدّده حكام العراق الجدد للوصول الى السلطة

ربيع الحافظ*

■ الكلام الذي بات تحصيل حاصل ويتفق عليه كل عراقي، رجلاً كان أم سيدة، شاباً أم هرماً، مثقفاً أم عادياً، هو أن العراق اليوم غدا وطناً من غير دولة، مدمر اقتصاده وبناه التحتية، مهدمة مدنه، ممزق نسيجه الاجتماعي، مختفية فيه الخدمات الاجتماعية، غائب عنه الأمان، ممتلئة سجونه، منهوبة ثرواته الطبيعية، تعصف به الطائفية والتطهير العرقي، تتمكن الشعوبية من عروبته وتراثه العربي الإسلامي، تجوبه إطلاعات (المخابرات الإيرانية) والموساد وتغتال مبدعيه ومفكريه، تتفشى فيه الجريمة والمخدرات والخطف، والجوع والمرض، وينال اليأس من أجياله الصاعدة، والعرض يطول.

زعماء الكتل السياسية والأحزاب الفائزة في الانتخابات الأخيرة الذين عقدوا مؤتمراً صحفياً في بغداد، كانوا يوزعون الابتسامات أمام عدسات التلفزيون، ويتبادلون النكات، وهيمنت على المشهد العراقي ووسائل الإعلام الأجواء «الأخوية» والاسترخاء الذي ستتشكل في كنفه حكومة الوحدة الوطنية التي ستنتقل بالبلاد إلى حقبة مشرقة جديدة.

هؤلاء هم الذين وعدوا العراقيين بالأمس بعراق «سويسري»، وأغوا المارق الأمريكي باحتلال الوطن لتحقيق هذه الغاية النبيلة، ونسجوا له الأكاذيب التي سوغت لصنع قرار الحرب العسير، غير آبهين بكل صوت مذكر ومحذر من عواقب وخيمة مشابهة لتدخلات سابقة للجيش الأمريكي في شؤون الشعوب، ومن الخراب والفظاظة الاجتماعية التي أشاعها في مجتمعات العالم، منذ أن تخلت أمريكا عن سياسية العزلة وخرجت إلى العالم، وعلى وجه التحديد منذ خروجها منتصرة بعد الحرب العالمية الثانية.

كم حذّر العقلاء من أن العين الأمريكية وهي تنظر إلى سطح الأرض، لا تبصر بشراً أو حياة، وإنما تبصر نفطاً وغازاً ومطاطاً وقمحاً، وأن الجيش الأمريكي ـ على وجه التحديد ـ لا يمكن أن يجلب حلاً لشعب من الشعوب، بل يجلب الخراب، لكن التحذيرات صادفت آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فكانت جريمة مع سبق الإصرار، وكان هذا الحال المتردي الذي يتنازعون على حكمه اليوم.

إن كل ما شاهده وسيشاهده العراقيون من مآسي الاحتلال الأمريكي لا يمكن أن يحمل عنصر مفاجأة لمتابع سياسي بسيط، فضلاً عن محترف سياسة، أو أنه سوء طالع، بل هي النتيجة الحتمية والطبيعية لكل من عرف العقيدة العسكرية للجيش الأمريكي، وعرف الانحراف السلوكي في صفوفه وفي مدرسة السياسة الأمريكية.

إن هذه المآسي تنسجم تماماً مع ما تضيق به ذرعاً مجتمعات شعوب الفلبين واليابان وكوريا وتايلاند. ومع ذلك فقد كانت هذه المآسي ثمناً مسوغاً يسدده حكام العراق الجدد للوصول إلى السلطة، وليتهم أقاموا نظاماً أفضل من الذي أسقطوه، بل فاقه سوءاً باعتراف العراقيين.

ما أعظم وجه الشبه بين هذا الثمن وهذا المنطق، وبين ثمن أرواح نصف مليون طفل عراقي قضوا إبان الحصار الأمريكي على العراق، قالت عنه مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية حينها: «إنه ثمن مبرر لهدف احتواء العراق».

نساء شعوب شرق آسيا يصررن على إخراج الجيش الأمريكي من القواعد العسكرية المحلية التي يستأجرها (لا يحتلها) بأموال طائلة تعود بالنفع على الاقتصاد الوطني، أو على الأقل إبعادهم عن التجمعات السكنية اتقاءً لأذاهم، «ورجالنا» يرون في خطى الجندي الأمريكي على أرضنا وبين حرائرنا بداية لطريق الألف خطوة نحو الديمقراطية والتمدن.

الذين وضعوا صدام في قفص الاتهام أمام «محكمة العصر» بتهمة قتل 140 مواطنا في الدجيل إثر محاولة لاغتياله، كل واحد فيهم تؤهله صحائفه لفترة سنين الاحتلال فقط التي أزهقت فيها أرواح 100 ألف عراقي، للمثول أمام محكمة عصر مماثلة، ناهيك عن جرائم قتل قام بعضهم بها بنفسه بمسدسه الخاص، أو تلك التي اقترفوها ضد الأسرى العراقيين في إيران، يوم كانت أرض فارس منطلقاً لحربهم ضد العراق.

وإذا كانت جريمة كجريمة حلبجة قد نفذت بأوامر صارمة ومباشرة من نظام صدام ـ وهو أمر لا يتورع عنه ولا يجرؤ أي أحد على عصيانها ـ وليس من قبل إيران كما كانت تصر واشنطن في حينها وبأدلة علمية، فإن مدن الفلوجة والقائم وتلعفر قد هدمت على رؤوس ساكنيها أمام عدسات التلفزيون وعلى الهواء مباشرة، وعلى أيدي أفواج المتطوعين من مليشيات بدر والبيشمركة، التي اصطفت جنباً إلى جنب الأمريكي والهندوراسي والأوكراني والبولندي، في أوضح إثبات عملي على إنهاء الدولة الوطنية، وارتفعت صور السيستاني إلى جانب الصليب في مشهد ذو دلالة مهمة، وتم ذلك بمباركة ميدانية من بعض هؤلاء السياسيين، أعادت إلى الأذهان إشراف شارون الميداني على مسرح مذبحة الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا.

هؤلاء الذين كانوا يوزعون الابتسامات بالأمس ويتمازحون أمام العدسات، كم قارنوا مشروعم بالأنموذج الأمريكي في اليابان؟ لكنهم حرموا العراقيين من تجربة اليابانيين في الإبقاء على الذاكرة الجماعية لما حصل لهم على أيدي الأمريكان، فأقفلوا ملفات ضحايا اليورانيوم المنضب، وملجأ العامرية، ورضوا بأن يكون الجندي الأمريكي فوق القانون، بل تفرجوا على الهواء مباشرة على مشاهد ضرب المدن العراقية الثائرة بوجه الاحتلال بالأسلحة الكيماوية، وتحويل مستشفياتها وميادينها وملاعبها إلى مقابر جماعية.

إن ما أوقعه الاحتلال بالمدن العراقية وبالعراقيين، وما فعلته المليشيات الصفوية في سجون الجادرية وغيرها، لا يرضاه عربي يتخلق بأخلاق العرب، سنياً كان أم شيعياً، ولكن يرضاه، بل يختاره، كل منسلخ عن إسلامه وعروبته، وتختاره الشعوبية، وتختاره إيران التي تدير المشهد العراقي، واختارت لثاراتها مع جاراتها هذا النوع من العقاب الأجنبي، وصدقت طهران: «لولانا ما سقطت بغداد، ولولانا لما سقطت كابل».

* كاتب من العراق يقيم في لندن

جواد البشيتي*

هذه البذاءة.. مرة أخرى!

■ قبل نحو ثلاثة أشهر، وتحت عنوان «هذه البذاءة في التهجم على النبي العربي!»، كتبتُ الآتي: «فالذي أريد قوله هو أنني زرتُ عشرات المواقع التي تتهجم على الإسلام والقرآن والنبي محمد. وتهجمها ليس فيه من المحتوى الفكري والمفردات والعبارات ما يحملنا على النظر إليه على أنه من نمط الانتقاد الفكري الموضوعي، وكأن حرية التعبير عن الرأي ووجهة النظر هي حرية السب والشتم والتطاول على الحقائق الموضوعية، وكأن المتهجمين يفهمون الحرية على أنها تجاوز كل الحدود، التي بعضها لا يمكنك أن تتجاوزه من غير أن تتجاوز، في الوقت نفسه، حدود الحقيقة. ورأيتُ في المواقع الإسلامية المضادة فشلا فكريا في الدفاع عن النبي العربي والإسلام، فلم أرَ من الدفاع أو الرد إلا ما هو من قبيل قال تعالى.. أو جاء في الحديث النبوي.. والمدافعون فشلوا في إدراك الأبعاد الحقيقية لهذا التهجم الإلكتروني على شخصية النبي العربي، وعلى كثير من أركان الفكر الإسلامي. إن هذا التهجم، المفعم بالبذاءة، مع مواقعه التي تُعد بالمئات، هو جزء من تلك الحرب الفكرية التي توعدتنا بها إدارة الرئيس بوش».

كارديفال في الفاتيكان هو اشيلي سيلفستريني أوضح تلك الحدود التي ينبغي لكل المنادين بحرية التعبير عدم تجاوزها إذا ما أرادوا لهذه الحرية أن تظل قيمة ديمقراطية عظمى، فقال: «يمكننا أن نتفهم السخرية من كاهن.. وعندما يتعلق الأمر بالإسلام يمكن تفهم السخرية من عادات وسلوك، ولكن ليس من القرآن أو الله أو النبي. السخرية مسيئة إذا ما جرحت مشاعر الجماعات وأقدس رموزها. نحن لا نتحدث هنا عن أقل من حرية السخرية التي تؤذي مشاعر شعوب رأت رموزها المقدسة تهان ويُسخر منها. إن على الثقافة الغربية أن تدرك حدودها».

انه صوت العقل هذا الذي سمعناه من هذا الكاردينال، والذي لم يقع على أسماع تشبه سمعه حتى عندنا، فبعض الحمقى.. الحمقى في المهنة، والفكر والسياسة، وفي فهم سيكولوجيا ومشاعر أبناء جلدتهم، جهلوا، أو تجاهلوا، أن الإسلام يُحرِّم تصوير النبي ولو بأحسن تصوير، فكيف إذا قمنا نحن بإعادة نشر رسوم مسيئة له، وليس من دافع لها سوى السخرية منه، وإظهاره على أنه محب لكل ما يتنافى مع القيم الحضارية والإنسانية؟!

يمكننا وينبغي لنا أن نسأل عن سبب هذا التأخر الإسلامي، الشعبي والحكومي (نحو خمسة شهور) في الرد والغضب. يمكننا وينبغي لنا أن نسأل: «لماذا الآن؟». ولكن السؤال يصبح مغرضا إذا ما كانت غاية السائل هي تشكيك ملايين الغاضبين في جدوى غضبتهم التي نحتاج إليها أكثر من احتياجنا إلى رغيف الخبز، فالجنون لم يأت من عندنا حتى يُقال «يا مسلمي العالم اتحدوا!».

ونعلم أن الإساءة الدنماركية ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة. على أن ذلك لا يبرر أن نقف منها موقفا انهزاميا كما وقفنا من قبل، فالعدول عن الخطأ فضيلة. وهذه الفضيلة، أي الغضبة، هي خير دواء لداء الجنون الغربي المتدثر بحرب الأفكار، وصراع الحضارات.

وهذه الحماقة لا تحمي صاحبها بقول من قبيل إن الغضب الشعبي يُفسد جهودا بُذلت لإقناع رئيس تحرير الصحيفة الدنماركية بالاعتذار، وقد اعتذر، على ما زُعم، ولكن اعتذاره المزعوم لم يُسمع؛ لأن ثمة مصالح سياسية غير دينية تدفع إلى المضي قُدما في الحرب على الدنمارك العزيزة! وشعوبنا ليست مضطرة إلى المفاضلة بين «الإساءة الدنماركية» وجرائم الزرقاوي، فهؤلاء الذين وقفوا ضد تلك الإساءة هم أنفسهم الذين وقفوا ضد هذه الجرائم، فشعوبنا تعرف أن الإساءة الدنماركية والزرقاوي هما وجهان لعملة واحدة، وتقف، بالتالي، ضدها وضده على قدم المساواة. إنها الحماقة بعينها أن يُصوِّر الغضب على الدنمارك على أنه خدمة للزرقاوي ولن هم على شاكلته.

لو لم تكن الحماقة، التي تكمن فيها مصالح شخصية تافهة، هي كل متاعهم الفكري لأدركوا أن الحرب على كل من يسيء إلى النبي العربي هي جزء لا يتجزأ من الحرب التي ينبغي لنا خوضها ضد أهل التكفير عندنا، فالذي لا يقف ضد هذا التطاول على المشاعر الدينية لشعوبنا وجداننا صوت المتاجرين بالدين المتوعدين بجهنم وبئس المصير.

كان طبيعيا ان يتساءل هؤلاء الزوار العرب الاولون عن اسباب تفوق الاوروبيين وتخلف العرب. وكان طبيعيا ان يبدأ البحث عن الاجابة في اكثر جوانب الاختلاف وضوحا. وكان من السهل ملاحظة ان الأوروبيين يختلفون عن المصريين والعرب في الدين واللغة والشكل الجسدي.

كانت اللغة هي اسهل هذه العوامل في تفنيدها واستبعادها اذ ان اوروبا نفسها لا تتكلم لغة واحدة اذ هناك الانكليزية في لندن والفرنسية في باريس والالمانية في برلين وهذه كلها مراكز حضارية بارزة اذن ليست اللغة هي مفتاح الحضارة الاوروبية وبالتالي ليست اللغة العربية هي سبب التخلف العربي.

اختلاف الدين كان عاملا اكثر صعوبة على التفنيد والاستبعاد اذ ان اوروبا برمتها كانت تدين بالمسيحية سواء في مذهبها الكاثوليكي في فرنسا او البروتستانتي في انكلترا والمانيا بينما كان المصريون والعرب بشكل عام يدينون بالاسلام. ولكن اختلاف الدين لم يصمد طويلا كسبب اساسي لتخلف العرب لان العرب قرأوا لباحثين ومؤرخين اوروبيين يعترفون بالتفوق السابق للحضارة الاسلامية حينما كانت اوروبا تعاني الانحدار والتخلف بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ورقاد اوروبا كلها في ظلمات العصور الوسطى بينما كان الشرق العربي من بغداد الى الاندلس يتوهج بالعلوم والفنون والمدنية الزاهرة. ورأينا عالما مسلما مثل ابن خلدون يؤسس علم الاجتماع ومفكرا مثل ابن رشد يضع العقل فوق النقل وفوق النص ورأينا الاندلس العربي يحتضن الاقليات اليهودية والمسيحية في تفتح وتسامح لم تعرفه اوروبا بعد ذلك بسنوات طويلة حين راحت تنصب محاكم التفتيش لكل من يختلف عن الفكرالسائد المتزمت.

اما اختلاف الجنس اوالعرق الذي يظهر واضحا في الشكل الاوروبي ذي العيون الزرقاء والخضراء والبشرة البيضاء والشعر الاشقر والذي قد تؤيده بعض الدراسات الانثرويولوجية فهو الآخر لم يصمد طويلا كسبب للتخلف العربي اذ يمكن حتى للانسان العربي الجاهل سواء في صعيد مصر او في العراق او لبنان ان ينظر حوله ليرى آثار حضارات قديمة صنعها اجداده في فجر التاريخ. هذا اذن انسان عرف كيف يصنع الحضارة ذات زمن سحيق بينما كان قرينه في اوروبا يعيش في عصور ما قبل التاريخ او ما قبل الحضارة. فاذا صنع المصري تلك الحضارة المصرية الشاهقة في فجر الانسانية فلماذا يتخلف عن الحضارة الانسانية اليوم؟

اختلاف الجنس والدين واللغة اذن لا تشكل منفردة او مجتمعة سببا مقنعا لتخلف العرب عن ركب الحضارة العالمية المعاصرة. ما سبب هذا التخلف اذن؟

ومما يزيد في حيرة الكثيرين من المثقفين العرب المهمومين بهذا التساؤل الوجودي المصيري الهام هو انهم ينظرون حولهم الى بقية شعوب الارض فيجدون ان معظم هذه الشعوب بما فيها تلك التي تشترك معهم في الكثير من الظروف التاريخية وتلك التي كانت زميلة لهم في وضعهم كدول نامية منذ حوالي ثلث قرن فقط قد قطعت شوطا طويلا على طريق التقدم الحضاري واصبحت تتفوق عليهم بشكل ملحوظ.. ومن هذه الدول الهند والصين واليابان وبعض دول امريكا اللاتينية ودول اوروبية لا تكاد تملك اية ثروات طبيعية مثل سويسرا وايرلندا.

واصبح من الموجع حقا للمثقف العربي المخلص لأمته ان يلاحظ بشيء من التعميم ان العالم كله يتقدم ما عدا العرب. بل ان الادهى من ذلك ان بلدا رائدا للمنطقة العربية كلها مثل مصر ليس فقط يتخلف عن الركب الحضاري العالمي بل يتخلف مقارنة بماضية الحديث نفسه اذ يمكن القول بلا مبالغة ان مصر في القرن العشرين وحتى نهاية الستينيات منه هي افضل من مصر اليوم حضاريا وثقافيا وعلى جميع الاصعدة.

اما الذي يبعث على الضحك المؤلم الذي هو نوع من البكاء فهو ان هنالك جماعه في مصر والعالم العربي اليوم لا تشارك اغلبية المثقفين العرب والعالم اجمع الاعتراف بتخلف العرب الحالي، بل تقول ان المجتمعات العربية تعيش حالة من الصحوة يسمونها «الصحوة الاسلامية». وهذه الجماعه هي جماعة ما يطلق عليه اسم «الاسلام السياسي» ومنهم اعضاء في «الاخوان المسلمون» وحركات اخرى اكثر تشددا فهؤلاء جميعا ينظرون الى مصر – الرائدة التاريخية للنهضة العربية فيجدون انهم قد نجحوا في تحجيب نسائها المسلمات عن بكرة ابيهم بما في ذلك زوجات العديد من المثقفين المصريين الذين لا يعتقدون ان الحجاب فرض، حتى هؤلاء لم تستطع نساؤهم مقاومة الضغوط الرهيبة التي نجح الاسلاميون في فرضها على الوجدان الشعبي دون مقاومة فكرية ثقافية من احد. ينظر الاسلاميون الى هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف الحجاب حتى مطلع السبعينيات من القرن العشرين فيرونه قد صار مجتمعا محجبا وبعضه منقبا ويرون مظاهر التدين الخارجية في كل مكان فيعتبرون ان هذه صحوة اسلامية، فالمتشدد في الدين سواء كان مسلما او مسيحيا او يهوديا ينظر الى العالم حوله بنظرة دينية احادية طاردة لكل منظور اخر وبالتالي لا يستطيع فسيولوجيا ان يرى من العالم حوله سوى مظاهر التدين وحدها، ويعمى عن رؤية اى مظاهر اخرى لانها ليست في مدى اهتمامة البصرى الخاضع لاهتمامه الوجداني الفكري المنحصر في الدين وشعائره ومظاهره. وبهذا لا يستطيع المتشدد دينيا ان يرى ما حوله من المظاهر الواضحة للفساد الشديد والتخلف العلمي والحضاري المصاحب لمظاهر الصحوة الدينية.. لان فرحه الجنوني بمظاهر التدين الخارجية تمنحه نشوة وجودية كالتي يبعثها حفل الزار في مريديه من الراقصين.. فيكاد من فرط نشوته التي اغرقتها عاطفته الدينية الفياضة ان يذهل عن الوجود والواقع الذي حوله ويدخل في حالة من الشبق الديني المخدر اللذيذ فيروح يهلل ويسبح بحمد الله الذي أغدق عليه كل هذه النعم الواضحة من مظاهر الهداية والتقوى والورع حتى ولو كانت محاطة بكل مظاهر التردي الحضاري في المجالات العلمية والاقتصادية والثقافية والفنية التي تصاحب بالضرورة حالات التشدد الديني في كل مجتمع يصاب بهذه الحالات مهما اختلف اسم الدين السائ